الجزء السادس والعشرون — ٤٦ سورة الأحقاف

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾
وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم
مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي
السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن
لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

٥٠٢

وداموا على ذلك، و ﴿**استقاموا**﴾ مدة حياتهم ﴿**فلا خوف عليهم**﴾ من كل شر أمامهم، ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ على ما خلفوا وراءهم، ﴿**أولئك أصحاب الجنة**﴾ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً، ﴿**خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون**﴾ من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿**١٥ ـ ١٦**﴾ ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين * أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون**﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿**ثلاثون شهراً**﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع ـ وهي سنتان ـ إذا سقطت من الثلاثين شهراً، بقي ستة أشهر، مدة للحمل ﴿**حتى إذا بلغ أشده**﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿**وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني**﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿**أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ**﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته مِنَّتَهُ، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً نِعَم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿**وأن أعمل صالحاً ترضاه**﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويثيب عليه. ﴿**وأصلح لي في ذريتي**﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿**وأصلح لي**﴾.

﴿**إني تبت إليك**﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿**وإني من المسلمين**﴾

﴿**أولئك**﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿**الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا**﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً غيرها. ﴿**ونتجاوز عن سيئاتهم**﴾ في جملة ﴿**أصحاب الجنة**﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿**وعد الصدق الذي كانوا يوعدون**﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿**١٧ ـ ١٩**﴾ ﴿**والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين * أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون**﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿**والذي قال لوالديه**﴾ إذ دعواه[1] إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿**أف لكما**﴾ أي: تبّاً لكما ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿**أتعدانني أن أخرج**﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿**وقد خلت القرون من قبلي**﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿**وهما**﴾ أي: والداه ﴿**يستغيثان الله**﴾ عليه، ويقولان له: ﴿**ويلك آمن**﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما ـ من حرصهما عليه ـ أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿**إن وعد الله حق**﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد

---

(١) في النسختين: دعياه.

إلا عتواً ونفوراً، واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه، ﴿فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ، ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلّمه؟ وأنّى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟

﴿أولئك الذين﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حقَّ عليهم القول﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿في﴾ جملة ﴿أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيغرقون في تيارهم.

﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم ﴿ولكلٍ﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿درجات مما عملوا﴾ أي: كلٌّ على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ بأن لا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٢٠﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة فهي حظكم من آخرتكم، ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق، أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على الله بنسبته إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة.

﴿٢١ ـ ٢٦﴾ ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ إلى آخر القصة[1] أي: ﴿واذكر﴾ بالثناء الجميل ﴿أخا عاد﴾ وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه.

﴿إذ أنذر قومه﴾ وهم عاد ﴿بالأحقاف﴾ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن.

﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ فلم يكن بدعاً منهم ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: ﴿ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾

فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوّفهم ـ إن لم يطيعوه ـ العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة. ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾ أي: ليس لك من القصد، ولا معك من الحق، إلا أنك حسدتنا على آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها.

﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ وهذا غاية الجهل والعناد. ﴿قال إنما العلم عند الله﴾ فهو الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء. ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾ أي: ليس عليَّ إلا البلاغ المبين، ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم

الجزء السادس والعشرون ٤٦ سورة الأحقاف

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا
مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ
وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟
بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ
ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٥٠٣

العذاب العظيم، وهي الريح التي دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿فلما رأوه﴾ أي: العذاب ﴿عارضاً مستقبل أوديتهم﴾ أي: معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل، فتسقي نوابتهم، ويشربون من آبارها وغُدرانها.

﴿قالوا﴾ مستبشرين: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ أي: هذا السحاب سيمطرنا.

قال تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ أي: هذا الذي جنيتم به على أنفسكم، حيث قلتم: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾. ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ ﴿تدمر كل شيء﴾ تمر عليه من شدتها ونحسها.

فسلطها الله عليهم ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [﴿بأمر ربها﴾ أي: بإذنه ومشيئته]. ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ بسبب جرمهم وظلمهم، هذا مع أن الله تعالى قد أدرَّ عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها،

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي
ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ
أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا
يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾
وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي
حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

وعمرناهم عمراً، يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله. **﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾** لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم **﴿يجحدون بآيات الله﴾** الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة.

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزؤون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرّف لهم الآيات، أي: نوّعها من كل وجه، **﴿لعلهم يرجعون﴾** عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: **﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾** أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بل ضلوا عنهم﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، **﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾** من الكذب، الذي يمنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت.

﴿٢٩ ـ ٣٢﴾ ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس، يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه **﴿نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾** أي: وصّى بعضهم بعضاً بذلك، **﴿فلما قضي﴾** وقد وعوه، وأثّر ذلك فيهم **﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾** نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه **﴿إلى الحق﴾** وهو الصواب في كل مطلوب وخبر، **﴿وإلى طريق مستقيم﴾** موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: **﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾** أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم، ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: **﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾** وإذا أجارهم من العذاب الأليم، فما ثَمَّ بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب. **﴿وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾** وأيُّ ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر؟!!

﴿٣٣﴾ ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عِظَمِهما وسعتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكترث بذلك، ولم يَعْيَ بخلقهن فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير؟!!

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * فاصبر كما صبر أولو العزم

openkangri.com

من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: ﴿أليس هذا بالحق﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحمقهم، فلا يَسْتَخِفَنَّك بجهلهم، ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، و ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا﴾ في الدنيا ﴿إلا ساعة من نهار﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل.

﴿بلاغ﴾ أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.

أو هذا القرآن العظيم، الذي بَيَّنَّا لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجلّ نعمة أنعم الله بها عليهم.

﴿فهل يهلك﴾ بالعقوبات ﴿إلا القوم الفاسقون﴾ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال، وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه.

فهؤلاء ﴿أضل﴾ اللهَ ﴿أعمالهم﴾ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان،

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ
مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ
عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ
﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ
مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

وأما ﴿والذين آمنوا﴾ بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة.

﴿كفّر﴾ الله ﴿عنهم سيئاتهم﴾ صغارها وكبارها، وإذا كُفرت سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة. ﴿وأصلح بالهم﴾ أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: ﴿اتبعوا الحق﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر ﴿من ربهم﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها.

﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ حيث بيَّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة﴾.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟
يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾
يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ
بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى
ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ
ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟
إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

﴿٤ ـ ٦﴾ ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منا بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعضٍ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرّفها لهم﴾ يقول تعالى ـ مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم ـ: **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾** في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، حتى تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرتهم، فإذا فعلتم ذلك، ورأيتم الأسر أولى وأصلح، **﴿فشدوا الوثاق﴾** أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شدّ منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المنّ عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر **﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾** أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا كان قتال وحرب.

فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذلك﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض **﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾** فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم.

﴿ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة.

﴿سيهديهم﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، **﴿ويصلح بالهم﴾** أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوّقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيله، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغّبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿٧ ـ ٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبّت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وأضل أعمالهم﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم **﴿كرهوا ما أنزل الله﴾** من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، **﴿فأحبط أعمالهم﴾**

﴿١٠ ـ ١١﴾ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها * ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم﴾ أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، **﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخمدوا، ودمَّر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾